الباب الثالث

المجتمع الإسلامي

- اولا : مجتمع الاسلام .. بناؤه وتطوره :
- ثانيا : تكافل الجماعة الاسلامية :
- ثالثا المراة فى الاسلام :
- رابعا : مجتمع الاسلام بين الماضى والحاضر
- خامسا : من مقومات المجتمع الصالح :
- سادسا : العادات الشعبية :
- سابعا : اعيادنا :
- ثامنا : الى الشباب :

الفصل الأول

- الفردية او الوجود الفردى فى الاسلام .
- الاحتفاظ بشخصية الفرد فى الجماعة .
- ايجابية الاسلام فى توجيه الفرد .
- تبادل الشعور بين الفرد والجماعة
- وحدة الجماعة .
- تماسك الجماعة .
- الميل الاجتماعى وطريق انمائه .

الفردية أو الوجود الفردى فى الإسلام

الإنسان لو ترك وطبيعته يسير فى طريقها دون أن يلزم نفسه بتوجيه معين — لسار حتماً إلى غاية لا يتخلف عنها أبداً . وهى : أن يكون أنانياً يحب ذاته ، ويعمل لنفسه فقط ، ويتصور الوجود كله وقفاً عليه ، والحياة الإنسانية خاصة به . ولا تحد أنانيته ، ولا نهاية لرغباته : إن حصل على شىء منها أمسك به عن غيره ، وإن فاته الحصول عليه غضب وقلق .

ذاك لأن ذاته فى تصور نفسه مركز هذه الحياة ، كل ما فيها يجب أن يدور حول نفسه ، وأن يكون له وحده دون غيره . ونتيجة هـذا التصور أنه لا يقر لغيره بحق العيش فى الحياة معه .

ونتيجة أنانيته إلى هذا الحد أن يسيطر عليه الخوف الأبدى من أن يفلت شىء مما فى يده ، ويستولى عليه الحزن الشديد إن فاته عرض من أعراض الدنيا ، ويخاصم غيره خصومة عنيفة على امتلاك متع الحياة . وإذن عيشته : خوف ، وحزن ، ونزاع ، وإذن حياته قلق واضطراب ، لا طمأنينة فيها .

وهـذه مظاهر تحكم الفردية فى سلوك الإنسان ، وهى بذاتها دائرة الوجود الفردى الذى يعيش فيه الإنسان ، ذلك الذى لم يوجه توجيهاً جماعياً ، يجعل منه ومن غيره جماعة وأمة .

الإسلام لا يرضى عن هذه الفردية ، ويراها فردية منحرفة لأنها لا توصل إلى سعادة الإنسان نفسه ، ولا إلى قيام جماعة منه ومن غيره . ولهذا يحرص كل الحرص على أن ينشىء الإنسان على الإيمان بالله ، دفعاً له على الخروج من هـذه الدائرة الفردية الضيقة ، وبالتالى دفعاً له على الخروج من هذا الحرج النفسى الأليم . والإيمان بالله ليس كلمة ينطق بها المؤمن ، بل هو عهد يعطيه الإنسان لله جل وعلا :

ويحمل هـذا العهد أن يعيش لنفسه وغيره ، ويقر إقراراً نفسياً بأن له حقوقاً وعليه واجبات . له حقوق بقدر ما يبذل من نفسه فى سبيل معاشريه وجماعته العامة ، وعليه واجبات بقدر ما يعدنفسه إعداداً يجعلهاتعرف فى وضوح أنها ليست وحدها فى هذه الحياة ، وإن مشاركيها فى هذه الحياة لهم حقوق قبلها يتعين أداؤها .

والمؤمنون بالله إذن: أولئك الذين لم يذعنوا لنداء الطبيعة الإنسانية الفجة، فلم يعيشوا لأنفسهم وحدهم ، ولم يمشوا فى الحياة لتحقيق مآربهم الذاتية الخاصة ، دون غيرها .

والمؤمن بالله عندئذ إنسان أمن على نفسه الخوف ، وحال بينها وبين الهم والحزن ، وجنبها الخصومة والنزاع . هو المطمئن فى سعيه لأنه يقصد وجه الله فيما يسعى ، وهو الناجح فى هذه الدار لأنه استطاع أن يتغلب على نزوات نفسه ، وهو الناجح فى الدار الآخرة لأن الله لا يخلف وعده المؤمنين . يقول الله جل شأنه : « وَالذين هُم لأَمَانَاتِهِم وَعَهدِهِم رَاعُون . وَالذِين هُم عَلَى صَلَوَاتِهِم يحَافِظُون . اولئِكَ هم الوَارِثُون . الذِين يَرِثُون الفِردَوس هُم فِيهَا خَالِدُون » (١) .

والقرآن الكريم وضح حال الإنسان إذا انقادلطبيعته الأولى ، فيقول سبحانه: « إنّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً. إذَا مَسّهُ الشر جَزُوعاً. وإذَا مَسهُ الخير مَنُوعاً» (٢) . كما وضح حاله فيما إذا آمن بالله وأخذ نفسه بميثاق الله ، فاستثناه من طابع صاحب الحالة الأولى ، فقال : « . . . إلا المصَلِّين . الذِين هُم عَلَى صَلاَتِهِم دَائِمُون . وَالذِين فِى أموَالِهم حَق مَعلُوم . للسَائِل والمحروم . والذِين يصدقُون بِيَوم الدِّين . والذِين هُم مِنْ عَذَاب رَبهم مُشفِقُون (٣) » .

ويروى عن أبى يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) المؤمنون : ٨ — ١١ (٢) المعارج : ١٩ — ٢١
(٣) المعارج : ٢٢ — ٢٧

« عجباً لأمر المؤمن ، ان امره كله خير ، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن : ان اصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وان اصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

— فالرسول عليه الصلاة والسلام يصور حال المومن بأنها حال الاطمئنان والاستقرار . وتلك حال خيرة ، بعيدة عن الألم والانزعاج ، بالقياس إلى حال الانسان المسترسل وفق نزواته وغرائزه ، الأنانى فى مسعاه ، والفردى فى إتجاهه ، وهو ذلك الإنسان الخائف الحزين ، القلق .

الإسلام يؤمن بالفرد ، ولكنه لا يؤمن بالفردية . وهو فى حال إيمانه بالفرد يؤمن بحقيقة موجودة . وفى حال إنكاره للفردية يرغب فى تجنيب الفرد مخاطر الفردية التى تتمثل فى الخوف الدائم ، والحزن الدائم . وعلى هذا الأساس يشجع الإسلام نشاط الفرد فى أى جانب من جوانب الحياة ، وحريته فيما يرى وفيما يعبر . ولا يحد نشاطه الفردى وحريته الفردية — فى نظر الاسلام — إلا فى إيذائه لغيره فى جماعته . وعلى هذا الأساس لا يقر الإسلام كيفية نشاط الفرد وحريته ، وذهابه كلية فى جماعته ، كما لا يقر أن تؤمن جماعته عن طريق انحرافه فى فرديته .

الاحتفاظ بشخصية الفرد فى الجماعة

الفرد والجماعة :

الجماعة المسلمة ليست شيئاً وراء أفراد المسلمين ، هى الأفراد جميعاً فى صلات بعضهم ببعض وجودهم كحقيقة ، مستمد من وجود الأفراد كحقائق قائمة مشاهدة. ولم يعرف القرآن الكريم فى أوامره ونواهيه ، وفى وصاياه العامة : الجماعة المسلمة بعيدة عن المؤمنين أنفسهم .. بعيدة عن ذواتهم وأشخاصهم . يقول الله تعالى : « اللهُ وَلِى الذِين آمَنـوا يخرِجهُم مِنَ الظلمَات إلى النور[١] » .. ولا شك أنه يقصد بالولاية هنا — التى هى التولى والتدبير والحماية — الجماعة المؤمنة . ولكنه فى إعلانه هذه الولاية أعلنها لهذه الجماعة فى أفرادها بصيغة الجمع وهم الذين آمنوا . وكذلك عندما يوجه أمراً أو نهياً عاماً كما فى قوله تعالى : « وَأَوْفُـوا بعَهـدِ الله إذا عَاهدْتم ولا تَنْقضُوا الأيمان بَعدَ توكيدِها وقدْ جَعَلْتم الله عَلَيْكم كَفيلا »[٢] .. يوجهه إلى المؤمنين كأفراد فى صيغة الجمع . وكذلك الشأن عندما يخبر عن حال عامة ، يخبر عنها مسندة إلى الأفراد مجتمعين . كما فى قوله تعالى : « والذين يؤذُون المؤمنين والمؤمنَات بغير ما اكتَسَبوا فقد احتَمَلوا بُهتَانًا وإثمًا مبينًا[٣] » .. وقوله : « ما كان الله ليذر المؤمنين عَلىَ مَا أنتُمْ عَليه حَتى يَميزَ الخبيثَ منَ الطيب » .

علاقة الفرد بالجماعة :

وإذا كانت الجماعة المسلمة ليست وراء أفرادها ، وإنما هى الأفراد بعينهم وأشخاصهم — كانت علاقة الفرد بالجماعة ، هى نفسها علاقة فرد ببقية الأفراد الآخرين معه . والفرد لم يلغ إذن ، والفرد باق بكيانه الشخصى المستقل . ووجوده كفرد وكوحدة بذاتها لم يمس ، وكل ماجد له من الجماعة التى هو عضو

---

(١) البقرة : ٢٥٧ (٢) النحل : ٩١
(٣) الأحزاب : ٥٨

فيها — أنه قد أضيفت إليه اعتبارات خاصة بحكم هـذه الجماعة ، وهى اعتبارات الروابط المتبادلة بين كل فرد والآخرين معه فى الجماعة . وهى اعتبارات الواجبات التى تؤدى من قبل الفرد نحو الآخرين معـه ، والحقوق التى تعطى له من هؤلاء الآخرين معه ، وهى واجبات عليهم أيضاً .

والفرد فى الجماعة المسلمة طالما لم يمس كيانه كوحدة بذاتها ، مستقل فى التصرف يتمتع بإرادة حرة ، وبحرية فى التملك . ولاستقلاله وحياته حرمة شخصية ، لاتهدر ولاتزول .

ولـكن — لأنه قد أضيفت إلى وجوده الشخصى الفردى اعتبارات خاصة بحكم الجماعة التى يعيش فيها ويشترك مع أفرادها فى الغاية العامة ، ويكون بعضويته جزءاً من كيانها العام — ليس استقلاله فى التصرف استقلالاً مطلقاً وليست حرية إرادته حرية كاملة ، وليست حريته فى حق التملك مطلقة ، وبالتالى ليست حرمته الشخصية حرمة على الإطلاق .

الفرد مع الأفراد الآخرين ، أو الفرد مع الجماعة — من وجهة نظر الإسلام — وحدة تتفاعل مع غيرها ، وتأخذ وتعطى ، وتتوقف عن التصرف . لهـا استقلال مقيد ، وحرية مقيدة . والفواصل التى تحدد استقلال الفرد فى الجماعة المسلمة فى التصرف والتملك على السواء هى الفواصل التى بين الحلال والحرام . و « الحلال بيّـن والحرام بيّـن » . إذ الحلال هو مايمثل النفع الفردى أو النفع العام ، هو نفع الآخرين مع الفرد فى الجماعة . والحرام بالعـكس هو مايمثل الضرر الفردى ، أو الضرر العام ، وهو ضرر الآخرين مع الفرد فى الجماعة .

وإذن استقلال الفرد محدود بحدود علاقته بالآخرين . فإن تجاوز فى تصرفه وتملـكه دائرة النفع ، فتصرفه وتملكه عندئذ غير مشروع . والفرد حينئذ يجب أن يرد إلى دائرة النفع ، ويحال بينه وبين الإضرار بالآخرين إضراراً أدبياً أو مادياً . وهنا يكون دور الحـكومة والولاية العامة .

استقلال الفرد فى الجماعة الإسلامية لايانى إذن بعلاقته بالآخرين . ولكنه يحد فقط . فالمرأة بزواجها لاتفقد هذا الاستقلال فى التصرف والتملك ، ولا تفقد الحرية فيما ترى وتعتقد . حتى فى مهرها الذى هو نحلة وعطية من زوجها إياها لايجوز استرداد جزء منه إلا عن رضا واختيار منها : « وآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (١) ».

وإذا كانت المرأة بعقد الزواج — ووضعيتها عندئذ تنبىء عن الاندماج — لاتفقد استقلالها فى التصرف والتملك ، فأى فرد مع فرد آخر أو أفراد آخرين معه لايفقدهذا الاستقلال بحال . لكن فقط يحد من هذا الاستقلال إذا اقتضت المصلحة العامة هذا التحديد. وليست المصلحة العامة سوى مصلحة الآخرين معه فى الجماعة .

إن إيجابية الإسلام فى علاقة الفرد بالجماعة هى فى تحديد الإسلام لوضعية الفرد ووضعية الجماعة معاً : فطالما الجماعة فى نظره ليست معبوداً فوق الأفراد — لأنها الأفراد أنفسهم — فللفرد إذن حريته واستقلاله المنبثقان من ذاته كوحدة بذاتها. ولكن صلاتها بالوحدات الأخرى ، وهى وحدات الأفراد الآخرين : هى التى تملى عليها رعاية حقوق هؤلاء الآخرين معه فى الوجود المشترك والحياة المشتركة . ورسالة الإسلام التى جاء بها القرآن الكريم وشرحتها السنة الصحيحة لاتخرج عن تحديد هذه الحقوق ، التى على كل فرد فى الجماعة أن يؤديها نحو الآخرين . وإذا أدى كل فرد هذه الحقوق لمن معه ، وصلته بالتالى الحقوق التى له على الآخرين . ولذا أوجب الإسلام على المؤمنين طاعة رسالته فقال : « يا أيها الذين آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٢) ». كما أوجب الاحتكام إليها عند النزاع والاختلاف فقال بعد ذلك : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣) ».

---

(١) النساء : ٤
(٢) النساء : ٥٩
(٣) النساء : ٥٩

إيجابية الإسلام فى توجيه الفرد

معنى الايجابية :

الإيجابية فى حياة الإنسان أو حياة الجماعة ، هى دفع الإنسان إلى مباشرة أمر الحياة فى وجوده الذى يعيش فيه . هى عدم انصراف الإنسان عن واقع حياته . هى تخير الإنسان الطريق الذى يمارس به شأن الحياة ، ويواجه به أحداث الحياة ، ويستغل به نشاطه فى الحياة ، ويحتم عليه السعى لصالح نفسه ، وحياته ووجوده .

الإيجابية فى حياة الإنسان ليست إذن تركا للحياة ، وبعداً عن أحداثها ، وعزلة للنجاة من أزماتها . كما أنها ليست إلغاء لإرادة الإنسان . إن الإيجابية فى حياة الإنسان هى تفاعل الإنسان مع الحياة : يدركها وتدفعه إلى إدراكها ، ويعمل فيها ، وتملى عليه العمل فيها .

ايجابية الاسلام :

ولكن كيف يدرك الإنسان الحياة ؟ وكيف يعمل فى الحياة ؟ . هنا يجىء حديثنا عن « إيجابية الإسلام » . فالإسلام ليس خالقاً لإيجابية الإنسان . وإنما هو موجه فقط فى نموها ، وسير حركتها . إذ الإسلام ، يقر للإنسان إيجابية من نفسه ، وأن طبيعته ، كطبيعة أى شىء له قوة الحركة ، طبيعة سائرة غير جامدة . وهذه الطبيعة له بحكم خلقه وتكوين الله إياه . وموقف الإسلام عندئذ هو موقف المنظم فحسب فى الايجابية ، حدد له طريق إدراك الحياة ، وحدد له كيفية العمل فيها . ولذلك كان كتاب الإسلام ، وهو القرآن كتاب هداية : « إِنَّ هَذَا القرآن يَهدِى لِلتى هِىَ أَقوَم ، وَيُبشر المؤمِنين الذِين يَعمَلون الصَّالِحات أنَّ لهم أجراً كبيراً »[1] .

(١) الاسراء : ٩ .

إذا كان الإسلام موجهاً لحركة الإنسان وإيجابيته فقد ساير إذن فطرة الله التى فطر الناس عليها : « إن الدينَ عندَ الله الإسلام »[1] .. « فأقم وَجْهَكَ للدِينِ حَنيفاً ، فطرة الله التى فَطر النَاس عَليهَا ، لا تَبْديلَ لخلق الله ، ذَلكَ الدين القَيم ، وَلـكنّ أكثرَ النَاس لا يَعلَمون »[2] .

والإسلام ، فى توجيهه لإيجابية الإنسان عنى بتوجيه الفرد كفرد ، وبوحدة الجماعة ، وبتماسكها ، ثم بالاحتفاظ بشخصية الفرد وشخصية الجماعة معاً — بحيث لايفنى الفرد فى الجماعة ، ولا تفنى الجماعة فى الفرد ، أى بحيث لايطغى أحدهما على الآخر .

* * *

فى توجيه الفرد :

وأول أمر حرص عليه فى توجيه إيجابية الفرد إشعار الفرد نفسه بأن له إيجابية وبأن له ذاتية خاصة ، يجب أن تترتب عليهـا آثارها . وتلك الآثار هى العمل والمسئولية من أجل الحيـاة . وهنا ، لإشعار الفرد بقيمة العمل ، جعل الإسلام العمل فى سبيل الحياة والعيش ، سعياً من الإنسان فى سبيل الله . فيروى أنه ﷺ كان جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة — وقد بكر يسعى — فقالوا : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله ؟ فقال ﷺ : **« لا تقولو هذا ، فانه ان كان يسعى على نفسه ليكفها عن المساله ويغنيها عن الناس ، فهو فى سبيل الله ، وان يسعى على ابوين ضعيفين او ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله » .**

فالرسول هنا إذ يعتبر سعى الإنسان فى سبيل عيشه وعيش أسرته بأنه سعى فى سبيل الله — يوقظ الإنسان لذاتيته ، وينبهه إلى أن تصريف الإنسان لإيجابيته فى العمل أمر يقدره الإسلام حق قدره . وإذن سبيل الله ليس فى ترك

---

(١) آل عمران : ١٩ .　　(٢) الروم : ٣٠ .

العمل ، وإلا لـكان لإسلام فى توجيهه الإنسان مغفلا طبيعة الإنسان . إنها طبيعة إيجابية كما ذكرنا ، وموقف الإسلام منها موقف الموجه . وفى حديث آخر يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **من طلب الدنيا حلالا تعففا عن المسألة ، وسعيا على عياله ، وتعطفا على جاره ، لقى الله ووجهه كالقمر ليلة البدر** » .

وإذا كان الحديث الأول قد أشعر الإنسان بقيمة العمل ، الذى هو نتيجة لإيجابيته ، فالحديث الثانى كان توجيهاً لإيجابية الإنسان فى عمله : إذ العمل الذى يجب أن تتجه إليه إيجابية الإنسان هو الحلال منه . وكل عمل لا يؤذى الغير ، وكل عمل بعد عن مواطن الإيذاء أو شبهة الإيذاء ، فهو عمل لله وعمل صالح للإنسان . وكما وجه الإسلام إيجابية الإنسان فى العمل إلى النوع الحلال منه ، وجهه أيضاً فى مجال العمل ودائرته . يقول القرآن الكريم: «وجَعَلنا لَـكُـم فيهَا مَعَايش[1]» .

كل فرد مطالب بالعمل ، وكل عمل يجب أن يتجنب فيه صاحبه الإيذاء والإضرار بالغير . وأرض الله واسعة ورحبة للتعمير والعمل . ليس المحلة أو القرية ، أو البلد هى موطن العمل المباح وحده ، ولا هى المتنفس لإيجابية الإنسان فى العمل ، بل الأرض جميعها : « فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله»[2] .

---

(١) الحجر : ٢١ . (٢) الجمعة : ١٠ .

تبادل الشعور بين الفرد والجماعة

نتحدث الآن عن عواقب مخالفة الأمم للسنن الكونية . ويجدر بنا قبل الحديث فى ذلك أن نقف على عوامل نمو الأمة ، والمبادىء التى تعتبر سنناً كونية طبيعية فى قوة الأمة ونجاحها .

إن هذه العوامل وهذه المبادىء ترجع فى جملتها إلى تبادل الشعور بين الأفراد من جهة ، والقوامين على شئون الأمة من جهة أخرى .. ترجع إلى أن يتمكن فى نفوس الأفراد شعورهم بالجماعة وبالأمة ، ويتمكن فى نفس الراعى والحاكم الشعور بحقوق الأفراد فى جماعته وأمته .

١ — فمن تمكن الشعور بالجماعة والأمة فى نفوس الأفراد يعطى هؤلاء الأفراد من أنفسهم وعملهم وتفكيرهم قسطاً يختلف فى السعة لصالح أمتهم : فإذا فكروا فليس لأنفسهم فحسب ، وإذا عملوا فليس ذلك محضاً لمنفعة أشخاصهم ، وإنما لأمتهم وجماعتهم النصيب الأوفر فى التفكير والعمل ، إذا غلب على نفوسهم الشعور بالأمة والجماعة .

لاتطغى روح الفردية عليهم ، ولايتغلب حب الذات على حقوق غيرهم من أبناء أمتهم : فإن كانوا عمالاً راعوا حق العمل وحق أصحابه فى الربح والإنتاج ، وإن كانوا تجاراً راعوا حقوق المتعاملين معهم فلا يغشونهم ، ولايخدعونهم . وإن كانوا مربين ومصلحين راقبوا الله وحق الوطن فى توجيههم للناشئة .. وهكذا كل يرعى حقوق غيره إذا ماعمل أو فكر .

كما أن تمكن الشعور بالجماعة فى نفوس الأفراد يكون من نتائجه أن يوقر الصغير الكبير ، وأن يعطف الكبير على الصغير ، وأن يرعى الغنى حقوق الفقراء ،

والمتفوقون فى العلم والجاه من هم أقل منهم فى ذلك . ورعاية حق الغير هو المظهر الواضح لتمكن الشعور بمعنى الأمة فى نفوس أفرادها ، وهو بالأحرى مظهر إشراك حق الجماعة والأمة فى عمل الأفراد وتفكيرهم .

ولكون شعور الأفراد بحق الأمة والجماعة سنة كونية لنمو الأمة ونجاحها ، ركز الإسلام توجيهه وعنايته لتنمية هـذا الشعور وتمكينه من نفوس الأفراد : فخاطب من المؤمنين أن يكونوا إخواناً متحابين ،وطلب إليهم أن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً : أن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى أحد أعضائه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . وحثهم فى العبادة على أن يتقربوا إلى الله مجتمعين فحبب إليهم صلاة الجماعة فى كل يوم ، وأوجب عليهم الاجتماع فى أهم مناسك الحج كل عام . ولم يدع وسيلة من وسائل تمكين شعور الأفراد بالجماعة والأمة إلا سلكه وأكد الأخذ به .

كما أيقظ فى الجماعة الكبرى وهى البشرية قاطبة الروح المشترك بين أعضائها وهى الروح الإنسانية : فوجه النداء إلى الناس ، وأرشدهم إلى أن الفوارق بينهم من كونهم ذكوراً وإناثاً،وكونهم شعوباً وقبائل،وغير ذلك هى الوسائل لتعارفهم وترابطهم: «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »

٢ — هذا عن تمكن الشعور بمعنى الأمة والجماعة فى نفوس الأفراد . أما عن تمكن الشعور بحقوق الأفراد فى الجماعة والأمة فى نفس الراعى والحاكم ، فمظهر هذا التمكن العدل بين الأفراد : القوى ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه ، والضعيف قوى حتى يأخذ الحق له . ثم محافظته على الحقوق الخاصة بالأفراد : على حرمة ملكيتهم ، وحرمة أسرهم ، ثم الإشراف على توجيههم لكسب قوتهم ، وإنتاجهم فى الحياة .

وكلما كان الحاكم أو كانت الدولة راعية لحقوق الأفراد ، ومؤمنة لهم على حرماتهم وحقوقهم، كلما كان لهذه الرعاية أثرها فى شعور الأفراد بدولتهم وأمتهم .

٣ — وهناك بجانب تبادل الشعور بين الأفراد فى الأمة من جهة وراعى هذه الأمة من جهة أخرى، عامل آخر لايقل أهمية عنه فى نمو الأمه ونجاحها هو : أن يكون أصحاب التوجيه فى الأمة أمثلة لما يوجهون به الأفراد : السياسيون يكونون أمثلة لممارسة الحكم الصالح العادل ، ورجال الدين يكونون أمثلة للتدين والخلق الكريم ، وأصحاب المعرفة يكونون أمثلة لتحرى الحق والحكم الصحيح .

لايبتغى السياسيون الثراء والجاه على حساب حكم الأفراد ، ولايقصد رجال الدين من عظاتهم الاحتراف بالعظة . ولا أصحاب المعرفة ان يتجروا بها .

إذا تمكن الشعور بحق الجماعة فى نفوس الأفراد ، وتمكن الشعور بحقوق الأفراد فى نفس الراعى والحاكم ، وكان أصحاب التوجيه فى الأمة أمثلة عملية لما يوجهون به الناس ، كانت الأمة عندئذ سائرة على المنهج الطبيعى لحياة أية أمة قوية ناجحة .

* * *

إن هذه العوامل هى السنن الكونية لرقى الأمة ونموها ونجاحها . إن الأمة إذا انحرفت عنها لا تسلك حينئذ سبل الأمم الناجحة . إذا ضعف شعور الأفراد بأمتهم وجماعتهم ، وطغت روح الفردية على نفوسهم ، وسيطر حب المنفعة الذاتية على تصرفاتهم وتوجيههم فى الحياة، فإنهم عندئذ لا يكونون أعضاء فى بناء أمة ، وإنما يكونون حلقات مستقلة يجاور بعضها بعضاً ، ويحتك بعضها ببعض ، وينفر بعضها من بعض . ليس لهم رأى عام ، وإنما لهم آراء متعددة . وليس لهم كفاح نحو هدف عام ، وإنما كفاحهم لتحقيق الحيـــاة الخاصة لكل واحد منهم . وكثيراً مايكون هذا الكفاح من بعضهم ضد بعض . وهذا يسهل على الأجنبى أن يسيطر على مثل هؤلاء الأفراد فى رقعتهم التى يقيمون عليها ، ويسهل عليه أن يستغلهم لمصلحته بأيسر الطرق وأرخص الوسائل .

إذا ضعف شعور الأفراد بمعنى الجماعة والأمة كثر الاعتداء فيها من بعضهم على بعض ، واتجه تفكير الكفاح فيهم إلى الشر والانتقام ، بدلاً من أن يوجه إلى الخير . كل هم ولأنهم تتجه إلى الخديعة والثأر . لأنهم ركزوا حينئذ نشاطهم البدنى والعقلى فى الحصول على المنافع الخاصة والمحافظة على الكيان الخاص ، دون نظر إلى المشاركين معهم فى أرضهم ، وأمتهم ، وسائر المقومات الأخرى للجماعة .

وكذلك إذا ضعف الشعور عند الحاكم والراعى بحقوق الأفراد ، فإنه لايتصرف تصرف الحريص على أبناء هذه الأمة وعلى حقهم فى الحياة ، وإنما يكون تصرفه أقرب إلى استغلالهم منه إلى خدمتهم . ويكون هدفه صالح نفسه على حساب صالحهم .

وإذا سلك أصحاب التوجيه فى الأمة مسلكاً لايتفق مع طبيعة التوجيه الذى ينتسبون إليه ، فإنهم يكونون عندئذ محترفين بالقيم وبالمثل العليا . وويل لأناس احترف الموجهون بينهم بالمثل والقيم الرفيعة .

إن السنن الكونية لحياة أية أمة من الأمم هى إذن الشعور المتبادل بين الأفراد من جانب ، وبين ممثل الجماعة من جانب آخر ، وهو ذلك الراعى العام . وكل عمل مثمر فى أية أمة يكون حتماً نتيجة لهذا الشعور : سواء من قبل الأفراد أو من قبل الحاكم العام .

وإن مخالفة الأمم للسنن الكونية تتمثل بالتالى فى ضعف هذا الشعور المتبادل أو فى انعدامه . وإذا كانت القوة ، والنمو ، والتماسك ، والنجاح فى الجماعة من مظاهر الشعور القومى الذى ذكرناه ، فإن الوهن والاضمحلال ، والفشل فى الحياة نتائج لضعف هذا الشعور عند الأفراد وعند الحاكم الذى يعد المثل الأعلى للجماعة .

الإسلام قصد أن يكون الفرد قوياً ، وإلى أن تكون الجماعة قوية . وجعل قوة الفرد فى سيطرة عقله على مطالب بدنه ، وقوة الجماعة فى سيطر معنى الجماعة

على نفوس الأفراد . وهو إذ يقصد إلى قوة الفرد وقوة الجماعة يهدف أخيراً إلى خير الفرد وخير الجماعة، وإلى أن يعيش الفرد معززاً مكرماً، وتعيش الأمة عزيزة كريمة على نفسها وعلى غيرها .

هدم أية أمة لا يكون إلا عن إضعاف شعور الأفراد بمعنى الأمة والجماعة ، وطريق ذلك تمكين حب المنافع الشخصية فى أنفسهم. وغالباً ما يكون ذلك على حساب مصلحة الأمة أو مصلحة الآخرين .

وبناء أية أمة لا يكون إلا عن طريق تقوية الشعور بالأمة والروح العامة فى الجماعة بين الأفراد والمواطنين ، وخير طريق لهذا البناء هو ما رسمه الإسلام فى عبادة الناس لربهم ، وفى معاملات بعضهم لبعض .

وحدة الجماعة

الجماعة الاسلامية ذات هدف موحد :

إن الجماعة لا تكون جماعة إلا إذا اتحدت على هدف ، وتمثلت صورة هذا الهدف فى نفس كل فرد من أفرادها تمثلاً واضحاً . وقبل ظهور الإسلام قامت جماعات إنسانية ، وانحلت جماعات أخرى . وبظهور الإسلام قامت الجماعة الإسلامية . فأى شىء وحد هذه الجماعة ؟ أو أى هدف تكون حوله ومن أجله المسلمون ، حتى صاروا جماعة معينة ؟ وما هى إيجابية الإسلام نحو وحدة الجماعة المسلمة ؟ . إن وحدة الهدف فى الجماعة الإسلامية هى عبادة الله الواحد : « ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم لا إله إلا هُوَ، خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيل(١) » .. وسبيل الله هو سبيل الوحدة إذن بين المسلمين . فالله غاية الجماعة الإسلامية ، وسبيله هو السبيل لهذه الغاية : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَموالِكُم وَأَنْفُسِكُم ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُم إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ(٢) » .

ولكن ماهو السبيل إلى الله ؟

السبيل إلى الله إيمان وعمل، إيمان بالله ورسوله ، وعمل بما جاء به الله ورسوله .. إيمان بالله ورسوله حتى يكون الله ورسوله أحب شىء لدى الفرد ، وعمل بما جاء به الله ورسوله حتى تكون الطاعة لما جاء به الله ورسوله فوق رغبات نفسه التى بين جنبيه ، وفوق إغراء المال الذى فى يده .

إيجابية الإسلام فى وحدة الجماعة عن طريق عبادة الله الواحد : ليست فحسب نصحاً للأفراد بأن يعبدوا الله ، ولكن فى حملهم على أن يترجموا هذه العبادة لله وحده فى سلوكهم ، حتى يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . ولا يشد

---

(١) الأنعام : ١٠٢ . (٢) الصف : ١٠ ، ١١ .

البناء بعضه بعضاً إلا إذا كان هناك انسجام فى وضع لبناته ، وتوازن بين صفوفه . ورسالة الإسلام — التى تعبر عن سبيل الله — هى رسالة توازن وانسجام بين الأفراد .

التوازن أساس تكوين الجماعة الاسلامية :

وعبادة المسلمين لله هى تنفيذ هذا التوازن والانسجام . ولا شىء أدل على التوازن من الإيثار ، كما أنه لا شىء أدل على عدم الانسجام من الأثرة . وما أوجبه الإسلام من عبادة وأحكام هو طريق التوازن ، وما حرمه ونهى عن فعله هو طريق النفرة ، وعدم الانسجام .

بين الإنسان والإنسان علاقات . فإذا سيطر الإيثار على كل منهما كانت المحبة وكان التوازن . وإذا تغلبت الأثرة بينهما كانت الكراهية وكان الاحتكاك وعدم الانسجام بينهما .

إن الإيثار ليس رغبة ولا أمنية ، وإنما هو مجاهدة وجهاد . مجاهدة فى حمل النفس على أن تدرك حق غيرها فى المشاركة فى الحياة ، وجهاد فى أن تعطى هذا الحق عملياً لغيرها فى صورة فيها وفاء الوجود المشترك . الإيثار هو التغلب على تحكم النفس : تغلب على طمعها ، وتغلب على حقدها .

فإذا وجدت النفس الإيثارية وجدت النفس المصقولة ، وأصبحت كالمبنة المشذبة المستقيمة ليس فيها اعوجاج ولا نتوء ، فإذا ضمت إلى مثيلتها كان الضم مستوياً وأبقى .

وإذا كان الإيثار مجاهدة وجهاداً ، فالنفس لا تقبل عليه إلا إذا كانت لها غاية تتمثلها تمثلاً واضحاً وتقر عيناً بإدراكها .

وسبيل الله هو سبيل الوحدة ، وسبيل القوة ، وسبيل البقاء . ولن يصل إنسان ما إلى الوحدة فى نفسه وفى جماعته ، وإلى القوة فى نفسه وفى جماعته ، وإلى البقاء فى نوعه وفى جماعته ، إلا بالتحكم فيما تدعو إليه نفسه من نزعات ، وفيما تطلبه من جاه ممثل : فى مال . . أو ولد .

تماسك الجماعة

أسس قيام الجماعة الاسلامية :

قامت الجماعة الإسلامية على أسس :

١ — على أن تتجه عبادتها إلى معبود واحد : « وَاعبُدُوا الله وَلاتشركوا بِهِ شيئاً[1] » .

٢ — وعلى أن تبقى فى سلام مع غيرها من الجماعات الأخرى : « يأيها الذِينَ آمَنُوا ادْخلوا فِى السّلم كافَة ، ولا تَتّبِعُوا خطُوَات الشّيطَان إنه لَكم عدو مُبين[2] » .

٣ — ولكن إذا هوجمت من جماعة أخرى غيرها يجب عليها أن لا تستكين لهذا الهجوم : « وَقَاتِلوا فِى سَبِيل الله الذِين يُقَاتِلُونَكم ، ولاتَعْتَدُوا إنّ الله لايحب المُعْتَدِين[3] » . أو إذا اعتدى عليها يجب أن ترد الاعتداء : «فمن اعتَدَى عَلَيكم فاعتدوا عَليهِ بِمثل ما اعتَدَى عَليكم ، واتقُوا الله وَاعلَمُوا أنّ الله مَعَ المتقِين »[4] .

هذه هى تعاليم الإسلام فى شأن قيام جماعة المسلمين فى علاقتها مع غيرها من الجماعات الأخرى .

* * *

وإن ما أتى به الإسلام فى شأن تماسك هذه الجماعة وبقائها صلبة قوية — فنبثق أكثر من ذات الإيمان بالله ، ويعود غالبه إلى الجانب الروحى فى الإنسان .

---

(١) النساء : ٣٦ .
(٢) البقرة : ٢٠٨ .
(٣) البقرة : ١٩٠ .
(٤) البقرة : ١٠٤ .

فالإيمان بالله — لاغيره — هو الذى ربط بين الفرد والفرد فى الجماعة الإسلامية . فيجب إذن أن يكون هذا الإيمان ملحوظاً فى الاستمرار فى العلاقة .

الولاء بين المسلمين :

ويجب بناء على ذلك أن لا يهجر المؤمن بولائه وأخلاقه مؤمناً آخر معه ، ويتجاوز بهذا الولاء والإخلاص إلى من هو عدو لهما معاً : « لا يَتخذ المؤمنون الكافرين أَوْلياء مِنْ دُون المؤْمِنِين وَمَنْ يَفْعَل ذَلك فَليس مِن الله فى شىء ، إلا أن تَتقُوا مِنهم تُقَاة ويحذِّرُكم الله نَفْسه ، وإلى الله المصير »[1] .

وتعبير القرآن الكريم هنا فى صورة النهى القاطع : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » : ثم حكمه على أن من يصنع ذلك ليس على الحقيقة من المؤمنين بالله فى شىء : «ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء» .. ثم هذا التحذير القوى للمخالف من رب الكون كله سواء فى الحياة القائمة أو الحياة المنتظرة : « ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » — كل هذا يوضح إلى أى مدى حرص الإسلام على تماسك الجماعة الإسلامية وبقائها قوية ، بعد أن قامت وأصبحت لها شخصيتها الخاصة .

إن تجارب الأيام فى تاريخ البشرية تؤكد أن العامل النفسى فى حياة الإنسان والجماعة أقوى من أى عامل آخر سواه ، إذا ضعفت نفس الفرد أو ضعف الترابط النفسى بينه وبين غيره كان التلاشى والفناء للفرد نفسه وكانت القطيعة بينه وبين غيره . وبالعكس تبرز صورة الوجود والحياة واضحة لمن قويت نفسه ، وكذلك الجماعة التى قويت الصلات الروحية بين الأفراد فيها .

وولاء المؤمن للمؤمن الذى يدعو إليه القرآن هو أكثر من صلة نفسية أو

---

(١) آل عمران : ٢٨ .

أى صلة وأكثر من شعور روحى متبادل قائم على التعاطف وعدم النفرة بين فرد وآخر . إن هـذا الولاء هو الإخلاص فى العلاقة ، هو إيثار الصديق للصديق ، هو الإحساس القوى بالكيان المشترك للإثنين معاً .

والإسلام بهذه الآية القرآنية لاينهى عن علاقة المودة بين المؤمن وغير المؤمن . لا ! بل الإسلام يركز النهى هنا فقط فى علاقة المودة والولاء على علاقة خاصة . وهذه العلاقة الخاصة أن يؤثر المؤمن بولائه وإخلاصه ومودته عدو المؤمنين جميعاً ، وهو المعاند لهم المنكر حقهم فى الحياة كجماعة خاصة وهو من سماه بالكافر .. يؤثر بهذا الولاء والإخلاص والمودة دون المؤمنين معه فى الجماعة والمشاركين لوجوده الخاص كمؤمن . وهذا هو صريح قوله : « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » .

وبما يجب على المؤمن نحو المؤمن من الولاء والإخلاص ، على هـذا النحو الذى بينه القرآن الكريم تقوم الأسباب الأخرى فى تماسك الجماعة وصلاتها . إذ كل تصوّر للمؤمن وكل عمل يصدر عنه عندئذ هو مبنى على هـذا الإخلاص فى العلاقة .

إذا وجد هذا الاخلاص فى العلاقة فلا يتصور مؤمن عندئذ مؤمناً آخر تصوّراً يشينه ، وحينئذ لايغتابه ولا يتم ويشى به ، ولا يسعى بالفساد بينه وبين غيره ولا يفزع منه ويخافه ، ولاينزع الثقة منه ، ولايحتقره أو يسخر منه .

كما لايصدر من مؤمن عندئذ لمؤمن آخر فعل يؤذيه إيذاء نفسياً أو بدنياً أو يضره فى ماله وولده ، أو فى عرضه وحرماته ، وحينئذ لا يسبّه ويشتمه ، ولا يتبعه بالإيذاء البدنى فى صورة ما ، ولا يسرق ماله أو يخدعه ويغشه فى التعامل معه ، ولا يسىء توجيه ولده ويحرضه على الانحراف والفساد ، ولاينتقص من حرمته فى زوجته أو بنته .

وكل ما أتى به الاسلام فى آدابه ووصاياه الخلقية ، سواء فى جانب الترك أو الفعل ، هو فى واقع الأمر تفريع على الولاء الذى طلبه بين المؤمن والمؤمن بصفة كون كل منهما مؤمناً ، وهو ذلك الولاء الذى عبر عنه فى صورة هى تعبير عن الواقع ، أو عما يجب أن يكون : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض[1] » .. كما عبر عنه فى الصورة الأخرى التى أوردناها ، وهى : « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين .. »

لم تقم الجماعة الاسلامية بالأمس لتفنى اليوم أو غداً . إن قيامها كان نتيجة لرسالة من الله . وكذلك بقاؤها وتماسكها ذو صلة قوية بالإيمان بالله : « ولينصرن الله من ينصره ، إنّ الله لقوى عزيز[2] » .

إن الإيمان بالله هو الإخلاص للغير ، ودفع العدوان ، وتعاون على العمل المثمر فى الحياة .

---

(١) التوبة : ٧١ . (٢) الحج : ٤٠ .

الميل الاجتماعى وطريق إنمائه

إن استقلال الفرد من الإنسان حقيقة موجودة غير منكرة ، وإن كيانه الذاتى وخصائصه المميزة أمر واقعى . لكن بحكم طبيعته الإنسانية وما لها من ميول عديدة يتجه بميل خاص فى النوع الإنسانى نحو غيره من الأفراد الآخرين ، وهو ما يعرف بالميل الاجتماعى .

وهذا الميل الاجتماعى — ككل ميل فى طبيعة الإنسان — هو استعداد يقبل الضعف إلى حد أنه يبدو متلاشياً ، وتبدو معه الذات وكأنها لاصلة لها بالآخرين إطلاقاً ، إن فى تصرفاتها وسلوكها معهم ، أو فى أحاسيسها بالنسبة لهم . ويقبل النمو والقوة إلى درجة أن يضحى صاحب هذا الميل القوى فى سبيل فرد آخر أو فى سبيل قيم ومبادىء عامة .

و « الأنانى » — كما يطلق عليه — ليس إلا الفرد الذى كاد ميله الاجتماعى يغيب تماماً فى كل عمل وتصرف يأتى به ، وفى كل مسلك يسلكه إزاء الآخرين . تفكيره حول ذاته وحدها ، وسعيه فى الحياة من أجل الذات ومتعتها فقط ، ولذته أو ألمه بسبب ما يتصل بهذه الذات من مصادر اللذة والألم فى الحياة الإنسانية دون مايلحق غيرها فى المجتمع معها .

و « الزاهد » فى متع الحياة المادية من أجل القيم العليا ، والمضحى أو « المستشهد فى سبيل الله » ليس إلا ذلك الفرد الذى دفع إغراء زينة الحياة التى نعيش فيها واكتفى من هذه الحياة بما يحفظ عليه نشاط العمل لتحقيق أهداف أخرى وراء ذاته ، وهى المبادىء والقيم الإنسانية التى يعم نفعها مجموعة من الناس فى وطن معين أو البشرية عامة . ولأن نفع هذه المبادىء والقيم عاماً وليس للفرد وحده : توصف دائماً بأنها « عليا » أى فوق مصلحة الفرد وذاته .

فالميل الاجتماعى عند الأول — وهو الأنانى — ضعيف لايمكن معه قيام مجتمع ، فضلا عن أن يكون مجتمعاً متماسكاً.. لايمكن معه أن يكون هناك ترابط مع غيره من أفراد البشر ، لأن الأساس المشترك للترابط مفقود أو فى حكم المفقود . وهو أساس «الاعتراف بالغير والآخرين معه» .. ذلك الأساس الذى يقوم عليه التبادل ، والتعاون ، والتضامن . وفى النهاية يؤدى إلى تكوين إحساس قوى بالمصالح المشتركة وصيانتها والدفاع عنها . وعندئذ فقط يبدأ المجتمع ، ثم يتلو هذه البداية نماؤه وتزايد العلاقات بين أفراده .

... بينما هذا الميل الاجتماعى عند الثانى — وهو الزاهد أو المضحى أو المستشهد فى سبيل القيم والمبادىء العليا — يبلغ ذروته . لأن أى واحد من هؤلاء لم يركز تفكيره وسعيه فى الحياة من أجل الذات وحدها . بل على العكس تجاوز فى هذا التفكير وفى هذا السعى : الذات نفسها وتخطاها كى يعيش فى رحاب أوسع فى سبيل قيم ومبادىء تعلو هذه الذات وترتبط بمصالح الآخرين ارتباطاً مباشراً . ويكفى أنه يزهد فى المتع المادية للحياة ليتركها لغيره ، أو يضحى بماله وولده وبما يملك من طاقات فى سبيل الآخرين ، أو يضحى بنفسه ويستشهد ليعيش الآخرون بعده فى المجتمع عيشة أكرم قوامها التخلص من انحرافات الأنانية .

ولأن الزهد فى متع الحياة المادية ، والتضحية بالمال والولد ، والاستشهاد والموت فى سبيل المبادىء والقيم العليا .. هى نماذج إنسانية لبلوغ الميل الاجتماعى قمته عند الفرد .. لايطلب أن يكون جميع أفراد المجتمع هذا النموذج . لأن ذلك مطلوب غير واقعى ، تقف عقبات كثيرة فى طريق تحققه ، وهى عقبات « الأنانية » والعكوف فى التفكير ، والسعى على الذات وحدها وما لها من شهوات وأمانى .

والذى يطلب هو فقط : تحقيق مستوى من الميل الاجتماعى يقوم معه المجتمع ويبقى متماسكا . ولكن تحقيق هذا المستوى لايتم إلا بالحد من الأنانية ، عن طريق حمل

الأفراد — بوسائل مقبولة يرضونها — على الاعتراف بالآخرين ، والمشاركة فيما بينهم فى السراء والضراء ، وتبادل المصالح المادية ، وقبلها تبادل العواطف الإنسانية .

وإذا نحن قرأنا هذه الآيات القرآنية من سورة آل عمران :

١ — « زُيِّنَ للناس حب الشهوات ،

« من النساء ،

« والبنين ،

« والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ،

« والخيل المسومة ، والأنعام والحرث ،

« ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب .

٢ — « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ،

« للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، « وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد .

« الذين يقولون : ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار .

« الصابرين ،

« والصادقين ،

« والقانتين ،

« والمنفقين

« وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » [1] .

... إذا نحن قرأنا هـذه الآيات نجد القرآن الكريم يصنف الناس صنفين : صنف يحب نفسه وتطغى عليه أنانيته ، ومن أجل ذلك تغريه متع الحياة ويتوسع فى التمتع بها ويركز عليها ، ولا يكتفى منها بما يحقق له أسباب الوجود والبقاء فحسب ، كى يوجه النشاط الزائد على تحصيل أسباب وجوده : إلى خير مجتمعه وأمته أى إلى خير الآخرين معه .

والتوسع فى متع الحياة المادية وهى النساء ، والبنين ، والأموال على اختلاف أنواعها نقدية أو عينيه يسميه القرآن : « شهوات » . فطلب متع الحياة فى ذاتها لحفظ البقاء أمر مفروغ منه ، وواجب لمواصلة سعى الانسان لتحقيق القيم والمبادىء العليا . ولكن الأمر الذى لا يرحب به القرآن هو التوسع فى هذه المتع أو هو الوقوع تحت إغراء مفاتن : « الشهوات » كما يعبر القرآن نفسه ، بحيث يقصر سعى الفرد عليها من أجل ذاته وحدها . والعيب إذن ليس الاتصال بالمرأة ، ولا نسل الأولاد ، ولا اقتناء المال ، لأن ذلك أمر فطرى . وإنما الانحراف فى كل ذلك . ومعيار هذا الانحراف هو الاغراق فى الملذات والمتع .

أما الصنف الثانى من الناس ، وهو يرضى عنه القرآن ، فهو ذلك الذى آمن بالله . . آمن بالقيم العليا والأهداف التى تتجاوز ذاته ، والذى يتقى الفواحش ، وهى الانحرافات فى التمتع بالحياة المادية والوقوع تحت إغرائها ، والذى يصبر عند الملمات والأزمات فلا يفقد إيمانه ولا يتشكك فى تمسكه بالمبادىء والمثل ، والذى يصدق فى إيمانه وتقواه ، ويصدق كذلك إذا ما تحدث أو نصح ، ولا يخدع غيره بالكذب والاختلاق ، والذى ينفق من ماله فلا يبقى منه إلا مايكفى حاجته ،

في سبيل مجتمعه وأمته . في سبيل بقاء هذا المجتمع وإعزاز الأمة إذا مادعا الداعى وتأكدت الحاجة إلى ذلك .

وهذا الصنف بأوصافه الخاصة يصور أصحاب الميل الاجتماعى الذين خرجوا بنشاطهم عن دائرة الذات ، ولم يقعوا تحت إغراء مفاتن الشهوات والمتع المادية في الحياة .

* * *

والشأن لو ترك الناس لطبائعهم وغرائزهم فإنهم ينهجون النهج الأول ويسلكون فى الحياة مسلك الوحدات المستقلة التى ينكر بعضها بعضاً ، ويخاصم بعضها البعض الآخر . لأن الكل لايريد الحفاظ على الذات فحسب وإنما يدفع بحكم الإغراء إلى التوسع فى تحقيق مطالب الذات ، وهى لاتنتهى . وهذا التوسع يؤدى حتما إلى الاعتداء على حق الآخرين فى الحياة . ومقتضى غريزة — المقاتلة — فى الطبيعة البشرية والحيوانية على السواء يثير فى الذات المعتدى عليها الدفاع عن النفس . وهذا معناه الاشتباك والخصومة بين المعتدى والمعتدى عليه . والواقع عندئذ أن كل فرد معتد على غيره .. ومعتدى عليه من غيره ، حسب الاختلاف فى القوة والضعف .

ويشير الشق الأول من الآيات السابقة إلى ذلك فى قول الله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ... »

* * *

ولأجل الخروج من دائرة « الذات » فى التفكير ، والسلوك ، والإحساس ، إلى دائرة الاعتراف بالغير والتعاطف بين الإنسان وتبادل المصلحة بينهما والحفاظ

عليها والتماسك سوياً من أجل البقاء ، والبقاء للقوى ... كان لابد من أن توجه الطبيعة البشرية توجيهاً قوياً يحقق لها هذه النقلة أولا ، ثم تلتزم برعايتها بحيث تحب للغير ماتحب للنفس ، وبحيث يكون الفرد للفرد كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وبحيث ينجذب الفرد نحو الفرد ويتداعى كل منهما للآخر عند الملمات ، كما تداعى أعضاء الجسم الواحد بعضها لبعض لدفع العلة والابقاء على ترابطها .

وقاعدة هذا التوجيه هى : « الإيمان بالله » وليس غير الايمان بالله من طريق ينمى الميل الاجتماعى فى الطبيعة البشرية ويخفف فيها حدة : « الأنانية » وطغيان: « الذات » .

لأن الإيمان بالله نقل للإنسان من مخالب الحياة المادية وتشابكها مع الذات إلى قيم عليا هى القيم الإنسانية فى أرفع مستواها . فإذا سعى الإنسان المؤمن عندئذ سعى فى دائرتين : دائرة دنيا وهى التى تلتصق بذات الفرد ، ودائرة عليا وهى ماتعم هذه الذات وغيرها من أفراد الانسان . ومذلك يكون هناك توازن على الأقل فى نشاط الفرد ويخرج عن التركيز فى دائرة الذات لاغير .

والإيمان بالله ليس تصديقاً بقيم عليا فى المجتمع الإنسانى فحسب ، وإنما هو تطبيق وسعى لتحقيق هذه القيم فى حياة الفرد — كل فرد . وأولى هذه القيم : الاعتراف بالغير والترابط معه على أساس إنسانى متساوٍ فى الاعتبار والقيمة .

ومن أجل ذلك ابتدأ البعض الآخر من الآيات التى ذكرت هنا بهذا الايمان فى قوله : « الذين يقولون : ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . . »

ولكى يكون الايمان بالله حقيقة واقعة فى حياة الفرد المؤمن . كان دور مايسمى بالعبادات التى هى الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج : فى الممارسة والتطبيق .

وهذه العبادات ليست رسوماً وصوراً تؤدى . وإنما هى فى جانب الصلاة: تفريغ النفس من سيادة الأنانية وتحكم الذات فى اندفاعها نحو إغراء متع الحياة المادية . وفى جانب الصوم والزكاة : مباشرة إيجابية فى: « الاستغناء » و « التنازل » للغير . وفى جانب الحج : لقاء عملى بين الأفراد وتعاهد على الترابط فى حدود القيم الانسانية وحدها ، دون خضوع لإغراء المتع الدنيوية وزينة الحياة.

ومن هنا كان اقتراب الانسان فى الحج إلى الفطرة والبعد عما يميز إنساناً عن آخر بالزى والمظهر أمراً واجب الاتباع .

* * *

وصوم رمضان ليس إمساكا فحسب عن مأكل ومشرب ، ولا إمساكاً كذلك عن لغو الحديث وانفعال النفس فترة معينة فى اليوم . وإنما هو قبل كل شيء : « اكتفاء » بأقل مايمكن فى معيشة الإنسان مما يحتاجه الإنسان فى حفظ بقاء ذاته . حتى إذا تأزمت أوضاع المجتمع الاقتصادية يوماً ما . كانت هناك طاقات إرادية لدى الأفراد تدفع للتنازل للغير ، والاستغناء عن بعض مايملك الفرد، بالمستوى الضرورى فى المعيشة .

ولذا كان للصوم الذى هو عبادة وقربى لله آداب فى الفطور والسحور ـ أى عند استئناف الأكل والشرب ـ يجب اتباعها . وتستهدف هذه الآداب فى جملتها تحقيق معنى : « الاكتفاء » بالأقل وبالضرورى فى حياة الإنسان ، كى تبقى بعد ذلك : فضلة تسد حاجة الغير .

وقيمة صوم رمضان لاتقف عند حد الشهر المعين . بل تتجاوزه إلى الحياة الإنسانية للفرد الصائم عامة ، بحيث يكون رمضان فى كل عام تجربة تقوى فى حياة الانسان معنى الاكتفاء ، وليس من الوجهة النظرية ، وإنما فى التطبيق والممارسة .

ومن هنا كان تقييم الحديث الشريف لصوم رمضان : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » . وما كان لله فهو للمجتمع . . والأمة . . والإنسانية .